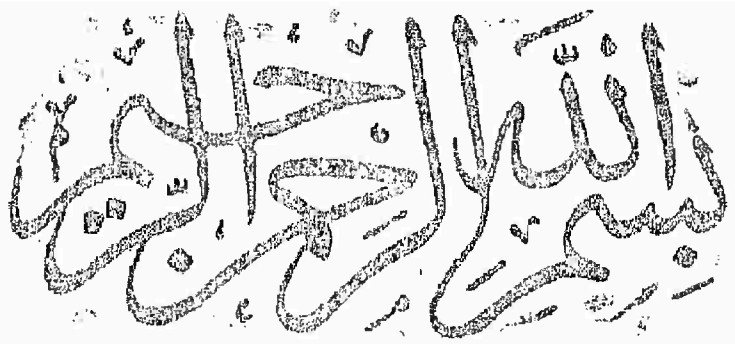

غريب سورة مريم عليها السلام ومشكلها

قوله تبارك اسمه وتعالى جده (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) أى لم أكن أخيب إذا دعوتك (خفت الموالى من ورائى) هى العصبة (من ورائى) من بعد موتى خاف أن يرثه غير الولد (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي) يعنى الولد يرثه الحبورة وكان حبراً (وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) المُلك كذلك قيل فى التفسير (لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) أى لم يسم أحدٌ قبله يحيى. وأما قوله - هل تعلم له سميا - فانه أراد فيما ذكر المفسرون شبيهاً ولو أراد أنه لا يسمى الله غيره كان وجها (مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) أى يبسا يقال عتا وقسا بمعنى واحد ومنه يقال ملك عات إذا كان قاسى القلب غير لين (ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) أى سويا غير أخرس. (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ) أى أومأ إليهم أن صلوا (بُكْرَةً وَعَشِيًّا) والسبحة الصلاة. (وَحَنَانًا) أى رحمة

ومنه يقال تحنن على وأصله من حنين الناقة على ولدها (وَزَكَاةً) أى صدقة (انْتَبَذَتْ) اعتزلت يقال بلست نبذة ونبذة أى ناحية (مَكَانًا شَرْقِيًّا) يريد مشرقة ـ والبغى الفاجرة والبغاء الزنا (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ) أى جاءها وألجأها وهو من حيث يقال جاءت به الحاجة اليك وأجاءنى الحاجة اليك. والمخاض الحمل (وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا) المنسى الشىء الحقير الذى إذا ألقى نسى ويكون كل ما نسى قال الشاعر

كأنّ لها فى الأرض نسيًا تقصّه ... على أمها وإنْ تحدثك تبلت (١)

تبلت تقطع مثل تبتل (وَالسَّرِىُّ) النهر. (نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا) أى صمتا والصوم الإمساك ومنه قيل للواقف من الخيل صائم. (لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) أى عظيما عجبا. (يَا أُخْتَ هَارُونَ) كان فى بنى إسرائيل رجل صالح يسمى هارون فشبهوها به كأنهم قالوا: ياشبيهة هارون فى الصلاح (لَأَرْجُمَنَّكَ) لأشتمنك (وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا) أى حينا طويلا ومنه يقال تمليت حبيبك والملوان الليل والنهار. (إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا) أى بارا عودنى منه إجابة إذا دعوته. (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) أى ذكرا حسنا عليا. (إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) أى آتيا مفعول فى معنى فاعل. (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا) أى باطلا من الكلام. (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ) قول الملائكة وقول جبريل على جميعهم السلام. (جِثِيًّا)

---

(١) قائله الشنفرى. وفى لسان العرب

كأن لها فى الارض نسيا تقصه ... على أمها وإن تخاطبها تبلت

جمع جاث وعتيا جمع عات (خَيْرٌ مَّقَامًا) أى منزلا (وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) أى مجلسا يقال المجلس ندىٌ وناد ومنه دار الندوة للدار التى كان المشركون يجلسون فيها يتشاورون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم. (وَالْأَثَاثُ) المتاع (وَالرِّئْىُ) المنظر والشارة والهيأة (فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا) أى يمد لهم فى ضلالتهم ﴿ش﴾ (كَلَّا) زجر وردع - قال الله عز وجل - أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم كلا - وقال تعالى - بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة كلا. - وقال ثم إن علينا بيانه كلا - يريد انته عن أن تعجل به - يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كلا - أى لا يخلده ماله - فى أى صورة ما شاء ركبك كلا - أى ليس كما غررت به وقال - وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ إلى قوله - يوم يقوم الناس لرب العالمين كلا - يريد انتهوا. ﴿غ﴾ (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ) أى نرثه المال والولد الذى قال لأوتينه. (وَيَأْتِينَا فَرْدًا) أى لا شىء معه. (وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) أى أعداء يوم القيامة وكانوا فى الدنيا أولياءهم. (تَؤُزُّهُمْ) تزعجهم إلى المعاصى (إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) أى أيام الحياة ويقال الأنفاس. (وَفْدًا) جمع وافد مثل رَكْبٍ جمع راكب وصَحْبٍ جمع صاحب. (والوِرْدُ) جماعة يردون الماء. (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا) أى وعدا منه له بالعمل الصالح والأيمان (جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) أى عظيما. (يَتَفَطَّرْنَ) يتشققن. (هَدًّا) أى سقوطا. (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا) أى محبة فى قلوب الناس. ومن باب التناقض والاختلاف

المنحول إلى القرآن العزيز الكريم أن قالوا فى باب الحكاية عنه فى قوله ـ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالِحَاتِ سيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ـ هل يجوز أن يقال فلانٌ يجعل لك حُبًّا ـ أى يحبك . فقال إنه ليس على تأولهم وإنما أراد أنه يجعل لهم فى قلوب العباد محبة ، فأنت ترى المخلص المجتهد محبباً إلى البر والفاجر مهيباً مذكوراً بالجميل ونحوه قول الله عز وجل فى موسى عليه السلام ـ وألقيت عليك محبة منى ـ ولم يرد فى هذا الموضع أنى أحببتك وإن كان يحبه وإنما أراد أنه حبَّبه إلى القلوب وقربه من النفوس فكان ذلك سببا لنجاته من فرعون حتى استحياه فى السنة التى كان يقتل فيها الولدان وكذلك حكى عنه فى قوله ـ وجعلنا نومكم سُبَاتا ـ السبات هو النوم فكيف يكون أن يجعل نوماً نوماً وفى قوله ـ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ ـ وقوله ـ لِنُرْسِلَ عليهم حجارةً من طينٍ ـ كيف يكون زجاجٌ من فضةٍ وحجارة من طينٍ . فأما قوله ـ وجعلنا نومَكُم سُبَاتا ـ فليس السُّبات هاهنا النوم فيكون معناه وجعلنا نومكم نوما ، ولكن السُّبات الراحة أى جعلنا نومكم راحة لأبدانكم ، ومنه قيل يوم السبت لأن الخلق اجتمع فى يوم الجمعة وكان الفراغ منه يوم السبت فقيل لبنى إسرائيل استريحوا فى هذا اليوم ولا تعملوا فيه شيئا فسمى يوم السبت أى يوم الراحة ، وأصل السبت التمدد ومن تمدد استراح ومنه قيل رجل مسبوت ويقال سبتت المرأة شعرها إذ نقضته من العقص وأرسلته قال أبو وجزة :

وإن سبتته مال جثل كأنه ... سدا واهلات مِنْ نَوَاسِجِ خثعم

ثم قد يسمى النوم سُباتا لأنه بالتمدد يكون . وأما قوله ـ قواريرا من فضة ـ فان ما فى الجنة من أنهارها وسُرُرها وفرشها مخالف لما فى الدنيا من صنعة العباد وإن الله سبحانه وتعالى إنما دلنا بما أرانا من هذا الحاضر على ماعنده من الغائب قال ابن عباس ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء ـ والأكواب ـ كيزان لاعُرى لها وهى فى الدنيا قد تكون من فضة وتكون قوارير فأعلمنا أن هنالك أكوابا لها بياض الفضة وصفاء القوارير وهذا على التشبيه أراد قوارير كأنها من فضة كما تقول أتانا شراب من نور أى كأنه نور . وقال قتادة فى قول الله عز وجل ـ كأنهنّ الياقوت والمرجان ـ أى لهن صفاء الياقوت وبياض المرجان . وأما قوله ـ حجارة من طين ـ فان ابن عباس ذكر أنها آجرة والآجر حجارة الطين لأنه فى صلابة الحجارة ﴿ قال أبو محمد ﴾ وقرأت فى التوراة ـ بعد ذكر أنساب ولد نوح أنهم تفرقوا فى الأرض وكانت الأرض لسانا واحداً فلما ارتحلوا من المشرق وجدوا بقعة فى أرض سنعير فحلوا بها ثم جعل الرجل منهم يقول لصاحبه هلم فلنلتبن لبنا فنحرقه بالنار فيكون اللبن حجارة ونبنى مجدلا رأسه فى السماء ، وذكر بعض من رأى هذه الحجارة أنها حمر منتمة . وقال آخرون مخططة وذلك تسويمها ولهذا ذهب قوم فى تفسير ـ سجيل ـ أى سكنكل ، وأما ماحكى عنهم أنهم قالوا فى قول الله عز وجل ـ ولهم رزقهم فيها بُكْرَةً وعَشِيًّا ـ أنهم يزعمون أنه لاشمس هناك ولا ليل وهذا يدل على أوقات مختلفة وشمس وضوء وليل ونهار لأن البكرة تدل على أول

النهار والعشى يدل على آخره وما كان له أول وآخر فله انصرام وإذا انصرم عاقبه الليل ﴿ قال أبو محمد ﴾ فى باب الرد عليهم : إن الناس يختلفون فى مطاعمهم فمنهم من يأكل الوجبة ومنهم من عادته الغداء والعشاء ومنهم من يزيد عليهما ومنهم من يأكل متى وجد لغير وقت ولا عدد فأعدل هذه الأحوال للطاعم وأنفعها وأبعدها من البشم والطواء على العموم الغداء والعشاء والعرب تكره الوجبة وتستحب العشاء وتقول ترك العشاء مهرمة يذهب بلحم الكاذة ، والكاذة باطن الفخذ، ونحن لا نعرف دهراً لا يختلف له وقت ولا يرى فيه ظلام ولا شمس فأراد الله عز وجل أن يعرفنا من حيث نفهم ونعلم أحوال أهل الجنة فى مآكلهم واعتدال أوقات مطاعمهم فضرب لنا البكرة والعشى مثلا إذ كانا يدلان على الغداء والعشاء. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال كانت العرب اذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجبه ذلك فأخبرهم الله تعالى أن لهم فى الجنة هذه الحالة التى تعجبهم فى الدنيا. وأما قوله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ـ النار يُعْرَضون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا ـ وأنه لم يرد أن ذلك يكون فى الآخرة وإنما أراد عز وجل أنهم يعرضون عليها بعد مماتهم فى القبور ﴿ قال أبو محمد ﴾ وهذا شاهد من كتاب الله عز وجل لعذاب القبر يدلك على ذلك قوله ـ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ـ فهم فى البرزخ يعرضون على النار غدواً وعشيا وفى القيامة يدخلون أشد العذاب ﴿ غ ﴾ (فانما يسرناه بلسانك) أى سهلناه